الأدب والفنون والسير الشعبية والجسور العربية (*)

أتاحت لى الكتابة فى الأسابيع الماضية، عن العمل الجليل الذى أنجزه وينجزه مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى، أن أطوف بالتراث الشعبى.. معتقداته وعاداته وتقاليده وآدابه وفنونه وسيره وملاحمه وأساطيره ومواويله وأغانيه وأشعاره وحرفه ومنتجاته.. وأن أجمع ما كان مبعثراً فى الذاكرة - أو المكتبة - من معلومات ومؤلفات متفرقة وضعها الأعلام ومن واصلوا من بعدهم، وبذلوا فى جمعها وتحليلها جهودًا مضيئة صارت بها - مع العمل الرائع لمركز توثيق التراث - فى متناول الباحث تبعًا لغوصه وتحليله لاستنطاق ما تراكم على مر الدهور.. قيمة هذا التراث أنه تعبير تلقائى عن الناس.. انبعث - كما ينقل رشدى صالح عن " هويتمان " - من عمل أجيال عديدة من البشرية من معتقداتها ومعارفها وأفراحها وأحزانها وضرورات حياتها.. أساسه العريض قريب من الأرض التى شقتها الفئوس، أما شكله النهائى فمن صنع الجماهير المغمورة المجهولة.. أولئك الذين يعيشون لصق الواقع !

---

* الأهرام ٢٠٠٧/٩/٦، المال ٢٠٠٧/٩/٢٣

لا يخطىء الجائل فى الأدب والفنون والسير الشعبية، كيف حملت أصداءً من هنا وهناك بالمنطقة العربية فى دلالة تلقائية واضحة على الجسور الممتدة بينها منذ فجر التاريخ، لم تمنع خصوصية الأدب الشعبى والفنون الشعبية فى بعض البلدان والأقطار، مثلما لم تمنع فى أقاليم القطر الواحد، من وجود قواسم مشتركة وأصداء متلاقية تورى بأن الأدب والفن الشعبى فى المنطقة العربية بعامة - دليل على اتصال وتواصل وامتزاج وتفاعل وانصهار لم يصنعه قرار، وإنما عبر تعبيرًا تلقائيا للإنسان العربى فى أدبه وفنه وشعره وسيره، شفاهةً وكتابةً، فقام هذا التراث شاهدًا تلقائيًا لا يستطيع أحد أن يغض دلالته على الجسور الممتدة فى قلب وأطراف المنطقة العربية والضاربة فى أعماق السنين.

ترى هذا الامتزاج شاخصًا وأنت تتابع كيف كانت مقامات بديع الزمان والحريرى مقدمة لنشأة " خيال الظل " الذى كتب عنه الدكتور عبد الحميد يونس يقول : " المقامة فى أصلها أدب تمثيلى، وأنها من القيام فى دار الندوة إبان العصر الجاهلى "، و" أنها كانت تمثيلاً مباشرًا متواصلاً يقوم به ممثل فرد ".. عادت المقامة من حيث بدأت، وجعلت تتطور حتى دخلت المسرح عن طريق " خيال الظل "، ومنها جعلت تتطور فنون الفرجة والعرض المسرحى. موجات التأثر بهذه المقامات عبر خيال الظل وما أدى إليه، عمت أصداؤها المنطقة العربية طولاً وعرضاً.. ترى هذا جلياً وأنت تتابع ما كتبه الأستاذ فاروق خورشيد رائد الأدب الشعبى، فى كتابه الضافى " الجذور الشعبية للمسرح العربى ". فيه تتبع الموروث الشعبى وملامحه الدرامية فى القول والأحلام والكهانة والسحر والجنون، ينطلق من قاعدة أن التراث الشعبى شامل يعنى عالما متشابكًا من

الموروث الحضارى، والبقايا السلوكية والقولية التى بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة، ومن مكان إلى مكان، فى المحيط العربى وفى ضمير الإنسان العربى. منذ مطلع التاريخ وهذه المنطقة - فيما يقدم فاروق خورشيد لعمله - مرتبطة ارتباطًا كاملاً باعتبارها بؤرة جغرافية موحدة المصالح والموقف التاريخى وتتبادل مراكز النقل الحضارى من الشرق والغرب والجنوب، وهذا التواصل والاستمرار فى تبادل المعلومة والمعرفة العامة، والإبداع الفكرى والفنى، كفل نوعًا من التزاوج العرقى والاجتماعى والفكرى، وجعل تبادل الفكر سمتًا عبر عن نفسه فى تراثنا الشعبى، وفى مسرحنا العربى.. يتابع فاروق خورشيد بحثه عن الملامح المسرحية فى الموروث الشعبى فى كتابات الأقدمين ومعالجات المحدثين، وعن أثر الزار فى المسرح المعبدى، ودور " خيال الظل "، ماراً بما كانت تمثله فى القديم مجالس السمر وما يرويه القصاص الذى يحكى حكايات الماضى وقصص الأولين، ودور " المقامة " فى التمهيد للمسرح. هذه الانعكاسات التبادلية فى المحيط العربى قد استلهمت السير الشعبية والأشعار وألف ليلة وليلة، وكلها ذات مضامين عربية، قدمت المادة العربية الشعبية التراثية للبدايات المسرحية الأولى فى المحيط العربى بعامة، متمثلة فى مسرح الشارع.. فى ملاعب اللهو والبهلوانات والسيرك والحواة الذين يلعبون بالثعابين ومروضى القرود، وملاعب المصارعين والملاكمين والمبارزين وضاربى الودع وفتح الرمل ونافخى النيران وأماكن مصارعة الديكة، وفى فنون المخايلة التى تمثلت فى خيال الظل وصندوق الدنيا والأراجوز وعروض فرق المحبظين، والتى ربطت فى النهاية بين إرهاصات المسرح العربى الشعبى هنا وهناك ثم بالمسرح

بـــل والأدب المعاصر الذى لا يزال للآن يستلهم التراث الشعبى العربـــى فى ألف ليلة وليلة وفى غيرها.

أمارات وشواهد هذه الجسور موجودة ظاهرة فى العادات والتقاليـــد. وفى القصص والسير والأساطير والمأثورات الشعبية. وفى الكتابات عـــن التراث الشعبى حتى وإن لم يعن الكاتب بالإشارة الصريحة إليها.. تراها - ما دمنا قد تكلمنا عن المسرح، فى كتب على الراعى عن " مسرح الشعب " : الكوميديا المرتجلة، وفنون الكوميديا مـــن خيال الظـــل إلـــى نجيـــب الريحانى.. فى كتابى رائـــد الأدب الشعبـــى الدكتور عبد الحميد يـــونس عن الظاهر بيبرس، وعن الحكاية الشعبية.. فيما كتبه الدكتور شكرى عياد عن البطل فى الأدب والأساطير، وفى كتابات أحمد رشدى صالح عـــن الفنون الشعبية والأدب الشعبى. فيمـــا كتبه فاروق خورشيد فى أدب وفـــن السيرة، وفى أدب الأسطورة عند العرب، وفى إبداعاته التراثية : حـــبظلم بظاظا، وعلى الزيبق، وملاعيب على الزيبـــق، وســـيف ابـــن ذى يـــزن ومغامراته، وفيما كتبته الدكتورة سهير القلماوى عن ألف ليلة وليلة ومـــا تضمنته من سير شعبية كسيرة الأميرة ذات الهمة.

ولعل السير الشعبية من أبرز عناصر التراث الشعبى دلالـــةً علـــى الاتصال والتواصل والتفاعل والامتزاج والانصهار فى المحيط العربـــى. فسيرة عنترة بن شداد ضاربة فى العصر الجاهلى والمعقات، ممتدة إلى ما بعد ظهـــور الإسلام. ومع أن حيز وقائعها كان فى شبه الجزيرة العربية، فإنك تلمح آثارها وعلامات الانصهار فى سيرة ذات الهمة التـــى شـــبهت بطلها " الصحصاح " بعنترة بن شداد، وكذلك سيرة حمزة البهلوان، وفـــى كثير من السير الشعبية التى بدا تأثرها بسيرة عنتـــرة بـــن شـــداد فـــى

التشبيهات وفى طريقة رسم الأبطال ووصفهم وفى تقليد الأحداث. تجد المشكلة الاجتماعية الحاضرة فى سيرة عنترة، حاضرة أيضا وشاغلة للمجتمع العربى هنا وهناك فى كثير من السير والموروث الشعبى بعامة.. وكيف يرجع الانتباه إلى عيوب الرق والتفرقة العنصرية إلى سيرة بلال ابن رباح وسلمان الفارسى وعبادة بن الصامت فى الإسلام.. عن تأثير سيرة الأميرة ذات الهمة، كتب الدكتور فؤاد حسنين : " وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى حتى أن الأديب التركى ابتدع قصة أخرى تستمد من قصصنا العربية خيالها وبعض وقائعها، وهى التى تعرف باسم سيد البطال ".. بل إن سيرة ذات الهمة تعكس صراع الأمة العربية بكاملها تجاه الغزو الأجنبى وأمام دولة الروم. أما سيرة الظاهر بيبرس فتكاد أن تكون امتدادا لسيرة الأميرة ذات الهمة من الناحية الزمنية، وفيها تلمح كيف اتسع فى السيرة مدلول كلمة " عربى " اتساعًا ضخما يشمل التركيب الاجتماعى السائد فى المنطقة كلها التى تجمعها مصالح مشتركة ويهددها خطر واحد وتدين كلها بتعاطف من عناصره : الدين واللغة والامتزاج الذى انعكس فى إحساس حاضر بالتوحد. تجد الأبطال والشخصيات تدور بين الأكراد والأيوبيين، وبلاد فارس وإيران، وبعضهم من الأتراك كالظاهر بيبرس. وآخرون من أبناء سيناء كشيحة الذى يعود نسبه إلى غزة، وبعضهم ينبع من حوارى القاهرة، وآخرون من الشام ومن المغرب ومن طنجة بمراكش. حين تبدأ أحداث سيرة الظاهر بيبرس الخروج من مصر إلى المحيط العربى كله، تراها تتجه منذ المناوشات الأولى للحروب الصليبية إلى الاتجاه القومى فى مواجهة هذا الغزو الصليبى، وتنعكس بذلك عناصر

التوحد بين أبناء المنطقة العربية، وتجعل من هذه المنطقة مجـالاً واحـدً تتحرك فيه روح المجتمع.

كنت أتمنى أن استخرج لك أكثر وأكثر من أمارات هذا التوحد الذى يهون على البعض ضربه هذه الأيام، أو الادعاء بأنـه محـض أضـغاث أحـلام. أبلغ رد على هـذا التهوين، هو ما صنعته الأجيال عبر الزمـان من تراكمات تلقائية لتراث عريض فى الأدب والفن والشعر والسيرة، وفى التقاليد والمعارف والآداب ــ يشهد بوحدة الامتزاج والمصير، وبأن هـذا التوحد عصىّ على أى دعاوى أو محاولات للبلقنة والتفتيت !